مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(غلاطية ١: ١١-١٩)

يا إخوةُ أُعلِمُكم أنَّ الإنجيلَ الذي بشَّرتُ بهِ ليسَ بحسبِ الإنسان* لأنّي لم أتسلَّمهُ أو أتعلَّمْهُ من إنسانٍ بل بإعلانِ يسوعَ المسيح* فإنَّكم قد سمعتُم بسيرتي قديمًا في مِلَّةِ اليهودِ أنّي كنتُ أضطهِدُ كنيسةَ اللهِ بإفراطٍ وأدمِّرُها* وأزيدُ تقدُّماً في مِلَّةِ اليهودِ على كثيرينَ من أترابي في جِنسي بكوني أوفرَ منهم غَيرةً على تقليداتِ آبائي* فلمَّا ارتضَى اللهُ الذي أفرزني من جوفِ أمِّي ودعاني بنعمتِه* أنْ يُعلِنَ ابنَهُ فيَّ لأُبشِّرَ بهِ بينَ الأممِ لساعتي لم أُصغِ إلى لحمٍ ودمٍ* ولا صَعِدْتُ إلى أورشليمَ إلى الرسلِ الذينَ قبلي بل انطلقتُ إلى ديارِ العربِ وبعدَ ذلكَ رجَعتُ إلى دمشق* ثمَّ إنّي بعدَ ثلاثِ سنينَ صَعِدتُ إلى أورشليمَ لأزورَ بطرسَ فأقمتُ عندَهُ خمسةَ عَشَرَ يومًا* ولم أرَ غيرَهُ من الرسلِ سوى يعقوبَ أخي الربّ.

المولود من الآب قبل كل الدهور

إثر انحسار موجات الاضطهاد الكبرى، التي توالت مع انتشار البشارة بيسوع المسيح، بدأ العمل في الكنيسة على إنشاء بنية إيمانية هي في الوقت نفسه صلبة متينة الأساس، ونقية من تأثير بشري آت من الفلسفة والعقل أو من العواطف والانفعالات. مذذاك اتّخذ علماء الكنيسة الإعلان الإلهي في الأسفار المقدّسة مرجعاً أساسياً يبحثون فيه ويبنون عليه، ولأجل هذا التأم أول مؤتمر كنسي جامع، هو المجمع المسكوني الأول، ومن بعده المجامع الكنسية التالية.

واجه المجمع المسكوني الأول أناساً ما كانوا يقبلون يسوع المولود من مريم إلهاً. يسوع، وبحسب ما اتسع له عقل هؤلاء، هو إنسان حلّت عليه نعمة الله أكثر من غيره، فصار إنساناً «أرفع فئة» من غيره. في المنطق البشري البحت، الإله إله والإنسان إنسان! أما الآباء الذين أخضعوا العقل للإيمان، وشرّعوا القلب للكشف الإلهي، فأفضوا إلى أن يسوع الناصري هو المسيح ابن الله الوحيد وهو الـ«مولود من الآب قبل كل الدهور: نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق ومساوٍ للآب في الجوهر». ما فهمه الآباء القديسون آنذاك أعلنوه عقيدة ونادوا به إيماناً، وهو ما نشهد به كلما صلّينا. هذا الإعلان يشير إلى ابن الله المسمّى أيضاً الكلمة، قبل ابتداء الزمان وأيضاً قبل ولادته بالجسد من العذراء مريم في بيت لحم.

العدد ٢٠٠٨/٥٢
الأحد ٢٨ كانون الأول
الأحد بعد عيد الميلاد
تذكار القديسين الشهداء العشرين ألفاً الذين أُحرقوا في نيقوميدية
اللحن الثالث
إنجيل السَحَر السادس

كنيسة المسيح تشهد ابناً وحيداً لله، وبتكرارها لعبارة مولود تشدِّد على بنوَّة الإبن لأبيه بالجوهر لا بالتبني، بنوَّة تحمل كل خصائص الجوهر الأبوي بلا استثناء. ابن الله مولود من الآب «قبل كل الدهور»، أي قبل ابتداء الزمان وتالياً قبل ابتداء الخليقة إذ إن الزمان بُعد من أبعاد العالم المخلوق. الأزلية أو بالحري الـ«لا زمنية» صفة من صفات الله وهو خالق الأزمان، ووجود الإبن بجانبه ينتمي إلى هذه الـ«لا زمنية» التي هي حاضر دائم.

الإنجيل

(متى ٢: ١٣–٢٣)

لمَّا انصرفَ المجوسُ إذا بملاكِ الربّ ظهرَ ليوسفَ في الحُلم قائلاً قُمْ فخُذِ الصبيَّ وأمهُ واهرب إلى مصر وكُنْ هناك حتى أقولَ لك* فإنَّ هيرودسَ مُزمعٌ أنْ يطلبَ الصبيَّ ليُهلِكَهُ* فقامَ وأخذَ الصبيَّ وأمَّهُ ليلاً وانصرفَ إلى مصرَ* وكان هناك إلى وفاةِ هيرودس ليتمَّ المقولُ من الربّ بالنبيّ القائل :«من مصرَ دَعَوْتُ ابني»* حينئذ لمَّا رأى هيرودسُ أنَّ المجوسَ سخروا به غضب جدًّا وأرسلَ فقتلَ كلَّ صبيانِ بيتَ لحمَ وجميعِ تخومها من ابنِ سنتينِ فما دونَ على حسب الزمان الذي تحقَّقهُ من المجوس* حينئذٍ تمَّ ما قالهُ إرمياءُ النبي القائل: «صوتٌ سُمعَ في الرامةِ نوحٌ وبكاءٌ وعويلٌ كثيرٌ. راحيل تبكي على أولادها وقد أبَتْ أنْ تتعزَّى لأنَّهم ليسوا بموجودين»* فلمَّا مات هيرودسُ إذا بملاكِ الربِّ ظهرَ ليوسفَ في الحُلْمِ في مصرَ قائلاً: قُمْ فخُذِ الصبيَّ وأمَّهُ واذهبْ إلى أرضِ إسرائيلَ فقد ماتَ طالبو نفسِ الصبيّ* فقام وأخذ

في هذا الـ«لا زمن» الدائم وَلَد الله ابنه الوحيد. «أنت ابني وأنا اليوم ولدتك، اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض مُلكاً لك» يقول سِفر المزامير (٢:٧)، وفي هذه الآية كلام كثير. فبين الـ«أنت ابني» والـ«أنا ولدتك» تكرار يراد به التوكيد والتشديد على الأبوة والبنوَّة معاً. وطالما أن الله لا يحدّه الزمان، فكلمة «اليوم» ما عادت تشير إلى نقطة ما في تاريخ ما، بل إلى «حاضر» دائم. أزلية الإبن إذاً صفة من صفات الآب، وهي من الدلالات على كونه مولوداً من الآب لا مخلوقاً منه، بالجوهر لا بالتبني، وفي الإصحاح الثامن من الرسالة إلى أهل رومية يمكن فهم الفارق جلياً بين البنوَّة بالجوهر وتلك التي بالتبني.

بين الأناجيل الأربعة ينفرد إنجيل يوحنا بالحديث عن هذا الوجود الـ«لا زمني» لابن الله مفتتحاً البشارة بالقول «في البدءِ كان الكلمةُ، والكلمةُ كان عند اللهِ وكان الكلمةُ اللهَ. هذا كان في البدءِ عند اللهِ» (يو ١: ١ و٢). وكأننا بالإنجيلي يكشف عن نسب المسيح المتجسد إلى أبيه السماوي، كما اهتم القديسان متى بالنسبة إلى إبرهيم ولوقا بالنسبة إلى آدم. في بشارة القديس يوحنا أنه في البدء المطلق، أي قبل ابتداء الأزمنة، كان الكلمة موجوداً بما يعني أن للكلمة ابن الله كياناً قائماً في أزل الله. أي بالعبارة البسيطة لم يكن زمان ما كان فيه الكلمة موجوداً، وهذه الأزلية ليست من صفات المخلوقات بل هي من صُلب الجوهر الإلهي. في إنجيل يوحنا أيضاً يخاطب الرب يسوع اليهود قائلاً «قبل أن يكون إبرهيمُ أنا كائنٌ» (٨: ٥٨) وقوة القول تكمن في ما أراده السيد المبارك من إيضاح للفرق بينه من جهة، وبين المرسَلين والأنبياء كلّهم، بين المحدود في الزمن وبين الكائن قبل الأزمان. أكثر من هذا، فالمقابلة هنا هي أيضاً للإضاءة على نوعية الإعلان الإلهي الجديد ومستواه، أي الإنتقال من المخاطبة بالواسطة إلى المخاطبة بالإبن، الذي صار ممراً حصرياً للخلاص والحياة الأبدية، على ما في الإنجيل عينه (٣: ١٦–١٨). الله لا يحقق الخلاص لمخلوقاته بمخلوق مثلهم بل بـ«ابن محبته» سيد الملكوت والذي «الكل به وله قد خُلق»؟ المخلوق لا يستطيع تحقيق المصالحة بين الخليقة المتمردة والله خالقها. ليس شيء من هذا ممكناً لو لم يكن الفادي مولوداً من صلب أبيه. للقديس الرسول بولس في رسالته إلى كولوسي كلام رائع في سر الإبن المولود من الآب الأزلي والخلاص الحاصل به (كو ١: ١٢–٢٠). نكتفي هنا بالإشارة إلى هذا المقطع دون إيراده، ليتبارك القارئ بالرجوع إليه.

الأنبياء القدامى حملوا كلمة الله لشعبه، ومنهم من توسّط أمام الله لشعبه، ومنهم من أتى بآيات ومعجزات، ولكن ما تجرّأ واحد منهم على أن يماهي نفسه بالله وعمله بعمل الله. أحد منهم لم يماهِ نفسه بالله ولا عمله بعمل الله، وهذا هو الفرق بينهم وبين الرب يسوع. هم رسل مخلوقون أما هو له المجد فالابن الوحيد المولود من الآب. بين الآب والإبن إلفة ومحبة حميمتان تفوقان فهم

الصبيَّ وأمَّهُ وجاءَ إلى أرضِ إسرائيلَ* ولمَّا سمع أنَّ أرْشيلاوسَ قد ملَكَ على اليهوديَّةِ مكانَ هيرودسَ أبيهِ خاف أنْ يذهبَ إلى هناك وأُوحيَ إليهِ في الحلمِ فانصرفَ إلى نواحي الجليل* وأتى وسكنَ في مدينةٍ تُدعى ناصرةً ليتمَّ المقولُ بالأنبياءِ إنَّهُ يُدعى ناصريًّا.

تأمل

«حينئذٍ لمَّا رأى هيرودسُ أنَّ المجوسَ سخروا به غضب جدًّا وأرسلَ فقتلَ كلَّ صبيانِ بيتَ لحمَ».

الغضب نار خارجة عن السيطرة، نار تُحرق كلّ شيء؛ الجسد يتزعزع والنفس تتحطّم، ولا شيء أكثر رعباً وقسوةً وهلاكاً من الغضب والغيظ. فلو كان الغاضب يستطيع أن يراقب نفسه في الساعة التي يغضب فيها ويثور، لما احتاج إلى أيّ نصيحة، لأنّ ما الذي يدفع إلى الإشمئزاز أكثر من الإنسان الغاضب؟

الغضب أسوأ من السُكر وأكثر شقاءً من الشيطان. حقاً، كلّ مَن يتسلّط عليه هذا الهوى يصبح سكيراً وشريراً معاً، فينتفخ وجهه، ويرتجف لسانه، ويتوحّش صوته، وتحمر البشر وتمجيد متبادل غير ممكن إلا للمتساوين في الكرامة والجوهر على ما في إنجيل يوحنا أيضاً (١٣: ٣١-٣٢) وغيره من المواضع الكثيرة. وإن كان الخلاص موضوع إيمان لا موضوع منطق أو استيعاب عقلي، ردم الهوة بين الخالق والمخلوق ما كان ممكناً بلا اتحاد الجوهر الإلهي غير المخلوق بالطبيعة البشرية المخلوقة، في الإبن الوحيد المولود بالجسد من العذراء الطاهرة، محققاً بدمه على الصليب المصالحة بين الخالق الأطهر والمخلوق الساقط. هذا تؤمن به الكنيسة وتنادي به، وهو أكثر من ذلك موضوع رجائها.

كل ما تقدّم إن هو إلا شذرات ضئيلة من لاهوت عقائدي واسع، معقّد، صعب المسالك، وقد عسر على مفكّرين كبار كثيرين، ويعسر على كل من قاربه بالفكر والعقل والمنطق. أما القلوب الوديعة المنفتحة على كلام الله وبشائره، فيكفيها وعد الرب لها لمّا قال «طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يُعاينون الله».

رسالة يعقوب:الأهواء

بالنسبة ليعقوب مَنْ يستسلم للذّاته الأرضية وأهوائه، أي يستسلم لدنيويات هذا العالم، فهو عدو الله: «أيُّها الزُّناةُ والزَّواني أمّا تعلمونَ أنَّ محبَّةَ العالمِ عداوةٌ للهِ. فمَن أراد أن يكونَ مُحبًّا للعالمِ فقد صارَ عدواً للهِ. أمْ تظنُّونَ أنَّ الكتابَ يقولُ باطلاً. الروحُ الذي حلَّ فينا يشتاقُ إلى الحسَدِ. ولكنَّه يعطي نِعمةً أعظمَ. لذلك يقولُ يُقاومُ اللهُ المُستكبرينَ وأمَّا المتواضعون فيُعطيهم نِعمةً» (يع ٤: ٤-٦).

صورة الزنى التي يستعملها يعقوب واردة في العهد القديم وخاصة مع الأنبياء الذين كانوا يشبهون خيانة عهد الله والإنحراف عن العبادة الحَسَنة بالخيانة الزوجية أو الزنى. مَن تعرّف إلى محبة الله وتركها ليلحق ملذاته الأرضية فهو يخون محبَّة الله وهو زانٍ لأنه أدخل إلى قلبه إلهاً آخر غير الله. لقد قال الرب: «لا يقدِرُ أحدٌ أن يخدِمَ سيِّدين. لأنَّه إمَّا أن يُبغِضَ الواحِدَ ويُحبَّ الآخر أو يُلازِمَ الواحِدَ ويحتقِرَ الآخرَ» (متى ٦:٢٤). لا تستطيع أن تكون صديقاً لله وصديقاً للعالم، أي لملذات هذا العالم، في نفس الوقت. متى أخضعت ذاتك للشهوة والحسد واللذات فأنت صرت تحت سلطان الشرير عدو الله، وبالتالي أنت من أعداء الله. لكن الله الذي هو «إله غيور» (خر ٢٠:٥) سوف لن يهملنا نحن الذين زرع فينا روحه القدوس في المعمودية لأنه يحب الروح الساكن فينا حتى الغيرة، وبالتالي سوف يقاوم الله المتكبرين الذين يتّكلون على ذواتهم كونهم ارتبطوا بروح إبليس، وسوف يهب نعمة أعظم للمتواضعين الذين يسلمونه ذواتهم ويفتحون له قلوبهم.

بعد الحثّ على ضرورة التعلّق بالله، وأن الله يمنح النِعَم للمتواضعين، يقدِّم يعقوب بعض النصائح لكي نكون وضعاء أمام الله كي يرفعنا الله في ملكوته: «فاخضعوا للهِ. قاوِموا إبليسَ فيهربُ منكم. اقتربوا إلى اللهِ فيقتربَ إليكم» (يع ٤: ٧-٨).

عيناه، وتسمع أذناه خطأً، وينتفض صدغاه، ويتعكّر عقله، ويفقد منطقه... دُوارٌ، حيرةٌ وظلام من الداخل، واحمرار الوجه، وعنف وصراخ من الخارج.

كان في إمكانه تجنّب كلّ هذه لو ضبط نفسه، ولو سيطر على أعصابه، مجنِّداً، ليس فقط طول الأناة والتواضع والصلاح، بل المنطق البسيط أيضاً؛ حينئذٍ لكان وجد الحلّ الأفضل للمشكلة التي جعلته يغضب لأنه كان سيفكّر بهدوء، ولما كان خلق اضطراباً لا نفع منه بغضبه وصراخه.

يقول الرسول: «ليُرفع من بينكم كلّ مرارةٍ وسخطٍ وغضبٍ وصياحٍ» (أف ٤: ٣١). كونوا ودعاء وسلاميين في معاشراتكم ومعاملاتكم، وإن سيطر الغضب عليكم لا إرادياً في أيّ حالةٍ، لا تُظهروه على الأقل ولا تتوحّشوا ولا تندفعوا إلى الصراخ. لذلك ينصح بولس بأن نطرد عنا ليس الغضب فقط بل الصراخ أيضاً، لأنّ الصراخ هو مادة الغضب. إذاً، فلنقيّد الحصان لكي نُهلك الفارس، ولنقطع أجنحة الصقر لكي لا يتصاعد الشرّ إلى الأعلى.

القديس يوحنا الذهبي الفم

مَن يريد الحصول على نِعَم الله عليه أن يطيع الله ويعمل بوصاياه، وفي نفس الوقت يقاوم إبليس، أي يرفض مشيئة إبليس، وهكذا يهرب الشيطان. عملية مقاومتنا الشيطان يجب أن تترافق مع رغبتنا بأن نقترب من الله عبر طاعتنا له، وذلك لكي نستطيع النجاة من تجارب الشيطان وبالتالي أن يهرب الشيطان بعيداً منا. متى وضعنا رجاءنا على الله، فالله يزوّدنا بأسلحة قوَّته التي لا تُقهر، فإن «كان اللهُ معنا فمَنْ علينا» (رو ٨: ٣١). متى فضّلنا صداقة الله على صداقة العالم فنحن نقترب من الله والله يقترب منا. ما أن نرجع إلى الله حتى يرجع هو إلينا (زك ١: ٣). أن نقترب من الله يعني أن نتخلّى عن ملذاتنا وشهواتنا وحسدنا وكبريائنا وخطايانا، أن نغيِّر منهج حياتنا. ألم يكن هذا ما فعله الإبن الضال؟ ترك كل شيء وعاد إلى أبيه الذي كان ينتظره مترقباً عودته. هذا ما نسمّيه التوبة في الحياة الروحية. وكما حصل مع الإبن الضال الذي أقرن قرار تغيير نمط حياته بالعودة فعلاً إلى أحضان أبيه، هكذا يجب أن لا تكون التوبة كلاماً أو مجرد مشاعر بل سلوك حياة. لذا يطلب يعقوب أن «نقوّموا أيديكُم أيها الخطأةُ وطهِّروا قلوبكم يا ذوي الرأيين. اكتئِبوا ونوحوا وابكوا. ليتحوَّلْ ضَحِكُكم إلى نَوْحٍ وفَرَحُكم إلى غَمٍّ. اتَّضِعوا قُدَّامَ الربِّ فيرفعَكُم» (يع ٤: ٨–١٠).

وحده «الطاهرُ اليدينِ والنقيُّ القلبِ الذي لم يحمِلْ نفسه إلى الباطلِ ولا حَلَفَ كَذِباً يحمِلُ بَرَكةً من عند الربِّ وبرًّا من إلهِ خلاصِهِ» (مز ٢٤: ٤–٥). هذا الإنسان يقترب من الله لأنه لم يعد ذا رأيين بل اتخذ قراره بأن يكون صديق الله وعدو شهوات هذا العالم، فلا يكون منقسماً بين محبة الله ومحبة شيء آخر. مَن أراد الإقتراب من الله عليه أن يحزن ويبكي على خطاياه. يقول الرسول بولس: «الآنَ أنا أفرَحُ لا لأنَّكم حزِنتم بل لأنَّكم حزِنتم للتوبةِ... لأنَّ الحزنَ الذي بحسَبِ مشيئةِ اللهِ يُنشِئُ توبةً لخلاصٍ بلا ندامةٍ» (٢ كور ٧: ٩–١٠).

وأخيراً، لكي لا يظن أي إنسان أنه ببكائه وتوبته أفضل من غيره فيفقد ثمار جهاده يقول: «اتضِعوا قُدَّامَ الربِّ فيرفعكم» (يع ٤:١٠). فضيلة التواضع هي أم الفضائل كلها. مَن لا يقتني التواضع لا يستطع أن يقر انه خاطئ وبالتالي لا يستطيع أن يغيِّر نفسه لأن «كُلُّ مَن يرفعُ نفسه يتَّضِعُ ومن يضَع نفسه يرتفع» (لو ١٨: ١٤).

ذكرى ختانة الرب

بمناسبة ذكرى ختانة الرب يسوع وعيد القديس باسيليوس الكبير ورأس السنة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الخميس الأول من كانون الثاني ٢٠٠٩ في كاتدرائية القديس جاورجيوس في ساحة النجمة. ويستقبل سيادته المهنئين يوم الخميس ١ كانون الثاني ٢٠٠٩ من الساعة ٤ ب.ظ حتى الساعة ٧ مساء ويوم الجمعة ٢ كانون الثاني من الساعة ١٠ صباحاً حتى الواحدة ومن الساعة ٤ ب.ظ. حتى الساعة ٧ مساء.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb